المقياس: علم النفس المرضي الاجتماعي

التخصص: علم النفس العيادي- ماستر2-

الأستاذة:أ.د. فتيحة كركوش

المحاضرة الأولى:

في ماهية علم النفس المرضي الاجتماعي

تمهيد:

يختلف تعامل العلوم الطبيعية مع الظواهر عن تعامل العلوم الإنسانية، حيث يمكن في العلوم الطبيعية استحداث الظواهر أو توقعها، تُمكّن العالم من اصطناع الطبيعة في معمله أو في الطبيعة ذاتها (يبدأ من تساؤلات: بماذا؟، فكيف؟، ثم لماذا؟). بينما تتعامل العلوم الإنسانية عادة مع أحداثٍ انقضت، وحتى وان تم استحداثها فانه لن يكون بنفس الصورة ولا بنفس الشكل.

انطلاقا من هذه الفكرة، نسعى من خلال هذه المحاضرة إلى توضيح خصوصية هذا المقياس عند طلبة علم النفس العيادي، وذلك من خلال:

- تحديد الظاهرة النفسية الاجتماعية المَرضِية،
- فهم معنى المرض النفسي والمرض الاجتماعي،
- الوصول إلى إدراك العلاقة الدينامية بين المرض النفسي والاجتماعي عند تفسير الظواهر.

1.مفهوم الأمراض النفسية الاجتماعية:

كثيرا ما يواجه مجتمع من المجتمعات فترة زمنية تزيد فيها أنواع معينة من الانحرافات النفسية، مثال ذلك انتشار تعاطي أنواع معينة من العقاقير المخدرة في الولايات المتحدة بعد حرب فيتنام، أو الشذوذ الجنسي مع قوة حركة تحرير المرأة، بل أحيانا ما يستقر نوع معين من هذه الانحرافات لفترات أطول كتعاطي الحشيش في مصر أو الشذوذ الجنسي في بعض واحات صحراء إفريقيا.

لذلك ظهر في ميدان علم الأمراض النفسية اهتمام كبير بالشكل الاجتماعي للأمراض النفسية، وقد أدى ذلك إلى اتضاح معالم انشغال جديد في هذا العلم استحق تسمية خاصة هي **الصحة العقلية** (Mental Health) ويتعلق هذا الانشغال بالجانب الوقائي من الأمراض النفسية، حيث يرتكز البحث في هذا المجال على بعض المحاولات العلمية لدرء خطر المرض النفسي قبل تمكنه، وذلك عن طريق إجراءات شاملة مثل توجيه الأباء في تربية الأطفال وتوعية الأفراد في مراحل تطورهم بمواطن الصراعات النفسية وإمكانيات حلها. كذلك ظهر في ميدان علم الأمراض الاجتماعية انشغال مقابل هو ما نطلق عليه تعبير **الخدمة الاجتماعية** (Social Service)، ويرتكز الاهتمام في الخدمة الاجتماعية على العلاج الاجتماعي للفرد مثل حل مشكلة وقت الفراغ والحياة الاجتماعية المدرسية.

يرتبط الاهتمام بدراسة المشكلات النفسية الاجتماعية، إذن، بالكثير من العلوم، من أهمها: علم النفس، علم الاجتماع، علم النفس الاجتماعي، علم الصحة العقلية والخدمة الاجتماعية وغيرها من العلوم. والجدول (01) يثري مضمون هذه الفكرة.

جدول (01):ارتباط دراسة المشكلات النفسية الاجتماعية بالعلوم الأخرى.

العلوم	مجال الاهتمام
علم النفس	يهتم بكل ما يصدر عن الإنسان من سلوك، يتبع في تناوله للظواهر النفسية أصول المنهج العلمي.
علم الاجتماع	يهتم بالدراسة العلمية لتكّون الجماعات المنظمة والمجتمعات القائمة ونظمها ومؤسساتها ووظائفها والتفاعلات الاجتماعية.
علم النفس الاجتماعي	يركز على الدراسة السيكولوجية لمختلف الظواهر الاجتماعية والنفسية التي تنشأ من وجود الجماعة وتفاعلاتها وتكويناتها وعضويتها واحتكاك أعضائها.
علم الصحة العقلية	يدرس توافق الفرد مع بيئته وكافة المعوقات التي تعوق عميلة التوافق؛ فهو يدرس سيكولوجية التوافق بهدف الوقاية من الوقوع في مظاهر الاضطرابات الوظيفية.
الخدمة الاجتماعية	خدمة مهنية متخصصة تشمل أنشطة منظمة تمارسها الحكومات أو الهيئات غير الحكومية لإعانة من يواجهون صعوبات في تأدية دورهم في الحياة الاجتماعية، ترمي جهودها إلى إعادة التأهيل ومعاونة المرضى والمعوقين وغيرهم ممن تحول دون ممارسة دورهم بفعالية ومشاركة.

يُقيم عالم الأمراض النفسية حجته على أنه هو الأقرب إلى علة المرض لدى المريض، ويدعى عالم الاجتماع انفراده لمعرفة ظروف التغيير الاجتماعي وأسبابه، ويقدم عالم الصحة العقلية برهانه من

إجراءاته الوقائية وقيمتها في حل المشكلة في اتجاه معكوس، وكذلك يدلل أصحاب الخدمة الاجتماعية على أحقيتهم بخبرتهم المباشرة خلال عملهم العلاجي الاجتماعي لظروف المرضى. على هذا الأساس اقترح تسمية هذا العلم الذي يهتم بمجال دراسة هذه الظواهر بـ"علم الأمراض النفسية الاجتماعي" (Social Psychopathology)؛ أي دراسة الظواهر النفسية الاجتماعية في صيغتها المرضية.

يمكن فهم الأمراض النفسية الاجتماعية من خلال جانبين مهمين، هما:

1.1.الجانب المعياري من مفهوم الأمراض النفسية الاجتماعية:

لا يقوم المحك المعياري على المفهوم الكمي للانتشار؛ بل على أساس كيف الانتشار. فكل مرض نفسي يرتبط بمعدل انتشاره سواء بالزيادة أو النقصان بظرف اجتماعي معين، بحيث يكون هذا الارتباط مباشرا وذا صلة ما بأسبابه، كل مرض تتوفر فيه هذه الخصائص يمكن أن يتحول إلى موضوع من موضوعات علم الأمراض النفسية الاجتماعية. بعبارة ثانية: إن ما يمكن إدراجه كمرض نفسي اجتماعي هو المرض النفسي الذي يرتبط في فترة زمنية معينة من تاريخ تطور وتغير البناء الاجتماعي بظرف اجتماعي، لذلك من الممكن أن يدخل أي مرض نفسي في إطار ونطاق الأمراض النفسية الاجتماعية، كما يمكن أن تنسحب عنه صفته الاجتماعية إذا ما انتهت الظروف والملابسات الاجتماعية التي ساعدت على انتشاره، أو إذا انتهت الظروف والملابسات الاجتماعية التي حدت من انتشاره.

بمثل هذا المحك المعياري ستتمايز في مجال علم الأمراض النفسية الاجتماعية أربعة مفاهيم فرعية، هي:

- الظاهرة النفسية: هي المرض النفسي بما هو معروف عنه في علم الأمراض النفسية،
- الظاهرة الاجتماعية: هي الخلل الاجتماعي بما هو معروف عنه في علم الأمراض الاجتماعية،
- التفسير النفسي: القائم على النظرية النفسية؛ أي العلاقات الداخلية في الفرد،
- التفسير الاجتماعي: القائم على النظرية الاجتماعية؛ أي العلاقات الخارجية بين الفرد والأخر (أو الخارج).

2.1.الجانب الدينامي من مفهوم الأمراض النفسية الاجتماعية:

حدد لنا الجانب المعياري نطاقات الباحث وميادين الدراسة، ولم يقدم مادة وموضوعات البحث ذاتها. نعطي مثالا للشرح:

يعد الفصام في الولايات المتحدة الأمريكية من أكثر الأمراض العقلية انتشارا، كما أنه يعد من الأمراض التي تكشف معدلات انتشارها علاقات وثيقة بظروف اجتماعية واضحة؛ فالفصام في الولايات المتحدة أكثر انتشارا في الحضر منه في الريف، وفي الطبقات الفقيرة منه في الطبقات الغنية، وفي الفئات غير المستقرة كأبناء المهاجرين الجدد منه في الفئات المستقرة.ولكن إذا درسنا إحصاءات الفصام في "الاتحاد السوفياتي" وجدنا أن الرأي السابق ورغم قيامه على أدلة إحصائية وتحليل جاد، ليس بالرأي الصواب: فإحصائيات الفصام في الولايات المتحدة تدل على أن معدل الإصابة يتزايد عاما بعد عام، بينما تنخفض النسبة ذاتها في "الاتحاد السوفياتي" عاما بعد عام. لقد لفت الأطباء النفسانيون النظر إلى تدخل عملية تشخيص الفصام في تقدير عدد حالات الفصام، بل وصل بهم الأمر إلى حد تأكيد ارتفاع معدل الإصابة في المناطق الريفية عما تقدره الإحصائيات، نظرا إلى عدم الاهتمام بعملية التشخيص، وعدم الانتباه إلى وجود فصاميين خارج حدود الشكوى الطبية. كما أن زيادة معدل الفصام في المجالات المتحضرة والآخذة بالأساليب الصناعية المعقدة يعود إلى ارتفاع مستوى الراعية الطبية مما يجعل معايير التشخيص الطبية أكثر دقة وأكثر تطبيقا على المواطنين.

إن المرض في حدود الفردية يعد خروجا من المعيار الاجتماعي على أساس أنه يشكل مضمونا مَرضيا، بينما يكون ذات المرض خروجا عن المعيار الفردي إذا شاع وانتشر وأصبح حالة في المجتمع أو حالة مجتمع.

كما أن تعريف المرض النفسي في شكل مبسط هو تثبيت على أساليب إشباع طفلية متخلفة نتيجة لصعوبات يلقاها الفرد في تقدمه إلى مراحل أرقى من التطور. نتيجة هذه الصعوبات لا يتقدم الفرد بأساليب إشباعه إلى المستوى المتطلب منه كانسان متطور.

أما المرض الاجتماعي فهو تثبيت على أساليب إنتاج بدائية في وقت يسمح الواقع فيه إلى أساليب أرقى، ونتيجة لذلك تظهر الأمراض النفسية الاجتماعية بمثابة أعراض؛ أي حلول وسط بين عناصر التقدم وعناصر التخلف، فالأمراض النفسية الاجتماعية هي عرض لمرض المجتمع.

لفهم ذلك لابد من توضيح بأن علاقة الفرد بالمجتمع تقوم أساسا على تناقض بينهما، وفي حدود هذا التناقض قد تظهر معالم انحرافات مَرضية من الفرد أو من المجتمع. والتفاعل عادة بين تناقض الفرد وتناقض المجتمع هو المحدد للحركة الدينامية بينهما؛ أي ظواهر الاتزان وعدم الاتزان بين رغبات

ومطالب كل منهما. لذلك، لابد لمن يحاول دراسة الظواهر النفسية الاجتماعية في صيغتها المرضية من الاعتناء بالحركة القائمة بين سيكولوجية الفرد وسيكولوجية المجتمع ليدرك المقصود بميدان البحث ومادة البحث؛ أي بين الظاهرة ووحدتها الفردية.

ويقصد بدينامية الفرد –كبعد في مبحث المرضي النفسي الاجتماعي– تلك ظاهرة الصيرورة المستمرة للفرد: فالفرد في تحول مستمر منذ ولادته، وتحوله هو عملية فقدان لاتزانه البيولوجي وما يتبعه من سعي لاستعادة اتزانه، حيث أنه من خلال هذه الحركة (الاتزان–فقدان الاتزان) تظهر أشكال الحياة الإنسانية المختلفة المعقدة.

كما أن دينامية المجتمع لا تختلف عن ذلك، فالمجتمع الإنساني في تحول مستمر، حيث يقوم مبدأ التحول الاجتماعي على نمط من الحركة اللولبية المضادة: ارتقاء وتطور وتقدم ثم تأخذ حركة التقدم في الضعف، ولكن قد تحدث طفرة إلى نمط من حركة أخرى وهكذا...(قوانين الحتمية).

لمزيد من التوضيح، فقد كان علم الأمراض النفسية الاجتماعية يُدرس سابقا تحت مسمى "الأمراض النفسية الاجتماعية"، ثم أثار المصطلح العديد من الاعتراضات، لأن كلمة "مرض' تثير في الذهن العديد من العلل والأعراض تصيب في الغالب الشخص –لا الأشخاص. وإذا كان المرض واحدا إلا أن الأعراض تختلف من حيث الشدة والتاريخ والاستجابة من عدمها والوسائل والعلاج. ثم إن التنبؤ بالمآل أيضا يتفاوت فيه الأفراد وفقا للعديد من العوامل المتشابكة. لذلك تم اقتراح تسمية "الظواهر النفسية الاجتماعية". فالظاهرة تعني نسبة كبيرة من الأفراد تعاني من هذه المشكلة ذات الجذور النفسية والاجتماعية أو المشكلة، لأن المشكلة هي عقبة تواجه الشخص وتصده عن مواصلة طريقه، فيبدأ في التفكير في كيفية إزالة الأسباب المعوقة.

2.تعريف المشكلة النفسية الاجتماعية:

ليس من السهل تقديم تعريف محدد وشامل وقاطع للمشكلة لعدة أسباب:

- إن وجود المشكلة في مكان ما لا يعني أن هذه المشكلة عامة في جميع الأماكن،
- إن مواجهة الشخص لمشكلة ما يختلف تفاعله معها من شخص لآخر؛ بل ربما عند نفس الشخص،

- تثير كلمة "مشكلة" عدة قضايا: هل هي مشكلة طارئة أم مزمنة؟، أم تظهر في فترة زمنية معينة ولأسباب خاصة؟،
- إن المشكلة لا تظهر من تلقاء ذاتها؛ بل لابد من تفاعل مجموعة من العوامل التي تشابكت وتعقدت لتفرزها، وبالتالي فان التشخيص الدقيق لهذه العوامل هام جدا،
- إن الحلول، أيضا، لا تكون جزئية لابد من أن تكون شاملة.

ومنه فان علم المشكلات النفسية الاجتماعية يعد ميدانا متميزا بطبيعة خاصة لأنه يقوم على فهم دينامي للفرد وفهم دينامي للمجتمع، ثم فهم لعلاقة دينامية الفرد بدينامية المجتمع(الفهم الدينامي هو البحث في العلل)، ومن ثم فان هذا العلم يحتاج إلى نظرية خاصة به ومنهج خاص به وباحث تتوفر فيه مجموعة من الشروط لأنه يتناول ظواهر معقدة ومتشابكة بل ومتغيرة من مرحلة إلى مرحلة زمنية أخرى....

يتناول هذا العلم –كموضوعات– العديد من المشكلات مع الأخذ بعين الاعتبار التباين الواضح بين المجتمعات ووفقا لطبيعة أولويات المشكلات ودرجة الاهتمام بها. عموما فان لغة الإحصاء والأرقام هامة في هذا الصدد بالرغم من عدم الاعتماد المطلق والنهائي على هذه الأرقام.

ملاحظة: للمحاضرة مراجع.